الفصل الثالث

الألوية الحمراء

ثعلب السياسة الإيطالية «جوليو أندريوتى» الذى يطلق عليه «تائبو المافيا» اسم «العم جوليو»، الذى تربع على عرش إيطاليا أكثر من ٤٥ سنة، ترأس خلالها رئاسة الحكومة ثمانى مرات، ينتظر المثول أمام محكمة الوزراء فى روما، ليس بتهمة كونه «عراب المافيا»، بل بتهم يعود تاريخها إلى ٢٠ سنة، وهى مقتل «أنظف شخصية» أنجبتها الديموقراطية المسيحية الإيطالية، ومهندس «المساومة التاريخية» مع أكبر حزب شيوعى فى عموم أوروبا، ألا وهو «آلدو مورو».

ولم تتأخر النيابة العامة المكلفة بالتحقيق مع «العم جوليو»؛ فأسرعت إلى التحقيق معه لمعرفة اختفاء «الملفات»، التى أعدتها الحكومة لمحاربة ما أطلق عليه آنذاك بالإرهاب اليسارى، والمتعلقة بمقتل زعيم الحزب الديموقراطى المسيحى على أيدى جماعة «الألوية الحمراء» عام ١٩٧٨، تلك الوثائق التى أمر اندريوتى نفسه ـ وكان حينها رئيسًا للوزراء بإتلافها ـ مكلفًا رئيس إدارة قصر «كيجى» الحكومى، الذى قال: «أمرنى أندريوتى بإتلافها، والادعاء بعدم وجودها على الإطلاق». وأهمية تلك الوثائق أنها تحوى أسماء عدد كبير من الجواسيس التابعين للحكومة، الذين انضموا إلى صفوف الألوية الحمراء، التى قادت معاركها الإرهابية فى السبعينيات.

واستجوبت لجنة التحقيق «فرانجسكو كوسيجا» رئيس الجمهورية السابق كشاهد؛ لأنه كان يتمتع بحصانة برلمانية فى ذلك الوقت (١٩٩٧)، وهو كعادته

لا يعرف شيئًا عن تلك الملفات، ولا عن خفايا مقتل «مورو»، مع أنه كان وزيرًا للداخلية، وأحد أقطاب اليمين داخل الديموقراطية المسيحية، الذى أشير إليه أكثر من مرة بأصابع الاتهام فى قضايا وفضائح ومجازر كثيرة.

وإيطاليا بلد الألغاز، إذ أعلن وزير الداخلية «جورجو نابوليتانو» (الشيوعى، المخضرم) بأنه وجد نسخة من الملفات كاملة فى الأرشيف السرى فى وزارته، وسلمها إلى رئاسة الوزراء ولجنة التحقيق، وهو تطور دراماتيكى، سيحمل أهم الزعماء السياسيين الإيطاليين، وأشهرهم على الصعيد الدولى، بالتأكيد إلى قفص الاتهام، والذى قال يومًا وهو يرد على من كان يتهمه بالمكوث فى السلطة أطول مدة: «إن السلطة تستهلك من لا يملكها»، وها هو أندريوتى الآن يبدو متجهًا إلى هذا المصير بعد ابتعاده عن السلطة منذ سنوات، وانهيار دعائم «الجمهورية الأولى»، التى شكل هو إحدى دعائمها الأساسية؛ ففى إيطاليا التى يحكمها «تحالف الزيتون»، لم تعد هناك «محرمات» أو «مقدسات».. رفع الغطاء عن الجميع، أحزاب انهارت وسياسيون دخلوا السجن، وزعماء منزوون فى بيوتهم، وآخرون فارون من وجه العدالة... وهكذا.

كان «الاختطاف السياسى» فى السبعينيات وحتى منتصف الثمانينيات، يجرى فى وضح النهار، وفى مراكز المدن الكبرى، وتحت سمع الشرطة، وأنظار مؤسسات البلاد الدستورية، وظل يتصاعد دراميًّا بسرعة حتى بلغ ذروته فى أخطر حلقة من حلقاته، التى توجهت ضد «قلب الدولة» الرسمى، على حد تعبير المختطفين فى ١٦ مارس ١٩٧٨ فى أحد شوارع روما (فيافانى)، وحققت نجاحًا غريبًا استمر ٥٥ يومًا، وانتهى بالقتل، علمًا بأن «القتيل» هو رئيس وزراء إيطاليا خمس مرات السنيور «ألدو مورو»، وأحد أبرز سياسييها وأقواهم، وربان الحزب الديموقراطى المسيحى، الحزب الذى حكم البلاد طوال ٤٠ عامًا، ومنح لإيطاليا «قرحتها» المستديمة، ثم كتب لها وصفة الدواء، الذى لا مفر منه، وهو التعاون مع الشيوعيين.

وعندما أطلقت الألوية الحمراء رصاصها على «قلب الدولة»، آنذاك وكما تزعم، فهى بتقديرات كل الصحف الغربية والأحزاب السياسية، كانت تستهدف «قلب» الحزب الشيوعى الإيطالى، الذى فرض مشاركته فى وضع برنامج الحكومة، وأصبح بإمكانه للمرة الأولى فى تاريخ البلاد، ممارسة نفوذه من موقع جديد، إلا أن الألوية الحمراء أجهضت تلك التجربة، التى عدّها قائد الحزب آنذاك «انريكو بيرلنجوير» مكسبًا عمليًّا، أثمرته سياسة الحزب فى لحظة حرجة من تاريخ تطور البلاد المعقد، والمحكوم بعشرات الميول والنزعات المتناقضة والمرشحة للبروز والتصادم.

وبدأ الجميع يتساءل عن الذى يكتب سيناريوهات القتل والاختطاف السياسى فى هذا البلد الجميل، ولمصلحة من؟

كان الحزب الشيوعى الإيطالى فى تلك الفترة يعدّ القوة الأساسية الفاعلة الثانية فى البلاد بعد الحزب الديموقراطى المسيحى، ونمت جماهيريته منذ تأسيسه فى تورينو عام ١٩٢٠ فى أعقاب محاولة قام بها العمال للاستيلاء على مصانعهم، ومنذ ذلك الوقت وشعبيته كانت تتسع إلى حد سمحت له بتحدى الديموقراطى المسيحى فى عقر داره، وكانت الانتخابات البرلمانية عام ١٩٧٦ الحد الفاصل، الذى مكن الحزب من الفوز أمام خسارة الديموقراطى المسيحى، الذى كان يتخبط سياسيًّا ومنخورًا بالتناقضات والفضائح الأخلاقية، ويتردى فى مهاويها، ويفتضح عجزه يومًا بعد آخر بالخروج بالبلاد من أزماتها المتسلسلة. وفى كل مرة كان الحزب الديموقراطى المسيحى يعاند منطق التغيير المحتوم، ويصطدم بـ «البعبع» الشيوعى الذى كان يكبر؛ ليصبح صخرة الواقع التى يرتطم بها الديموقراطيون المسيحيون ليصابوا بالدوار، ويضطروا أخيرًا للتنازل عن شىء جديد من ملكوتهم، وهو قبول الشيوعيين فى الغالبية البرلمانية الحاكمة فى مارس ١٩٧٨، على أن ذلك لم يحدث بمعزل عن السنيور «ألدو مورو»، الذى لعب دورًا مهمًّا وحاسمًا من موقعه فى القيادة.

وصف «آلدو مورو» بأنه العقل المدبر وراء تشكيل الحكومة الإيطالية، التى يؤيدها الشيوعيون، وهو السكرتير السياسى للحزب منذ عام ١٩٥٩، وفى عام ١٩٧٦ أصبح رئيسًا لحزبه بعد إزاحة «امنتورى فانفانى»، الذى ظل يصرخ حتى اللحظة الأخيرة، ولربما حتى الوقت الحاضر فى المعنى: «انهيار إيطاليا ولا الشيوعية». فأصبح مورو «رجل الانفتاح على اليسار»، واستطاع أن يرأس أطول الوزارات فى تاريخ إيطاليا عمرًا بعد الحرب العالمية الثانية، وعمرت ٨٢٩ يومًا من عام ١٩٦٦ حتى ١٩٦٨، فى حين لا يتجاوز معدل الوزارات فى إيطاليا فى الغالب ٢٣٥ يومًا.

واستطاع هذا الرجل ببصيرة موضوعية رؤية زحف رياح التغيير المتعددة الاتجاهات على «قلعة» الديموقراطية المسيحية، التى نخرتها آنذاك عوامل التعرية والتآكل، وجعلتها عرضة للسقوط، وبدلاً من أن يدس رأسه - كما هى العادة عند كبار القادة، فى الرمال كالنعامة - فإنه أفلح فى ترويض حزبه والقبول بالشيوعيين (كشر لابد منه). وأصدرت السفارة الاميركية حينها بيانًا يقول ما معناه: «إن واشنطن لا تريد شيوعيًـا واحدًا فى الوزارة الإيطالية، وإنما كل الذى تطالب به أن ترى هبوطًا للنفوذ الشيوعى، ليس فى إيطاليا وحدها، بل فى عموم أوروبا» ولسان حال السفارة الأميركيه يقول لمورو: «لقد أعذر من أنذر، ومن لا يقيم للتهديدات الأميركية وزنًا، فعليه أن يدفع الثمن.. وكان الثمن».

ففى ١٦ مارس ١٩٧٨، وهو موعد اجتماع البرلمان الإيطالى لتعميد الحكومة الجديدة التى كان يرأسها أندريوتى، والتى تعسرت طويلاً لترى النور بعملية قيصرية بموجب الاتفاق التاريخى (المساومة التاريخية) مع الشيوعيين؛ ليكونوا من خلالها الغالبية البرلمانية، وقبل ساعة واحدة فقط من بدء «القداس» البرلمانى، انهمر الرصاص فى شارع «فيافانى» على آلدو مورو، فقتل حراسه الخمسة، وألبس هو طاقية الإخفاء.

كانت جماعة الألوية الحمراء منظمة يسارية متطرفة تشبه - إلى حد كبير - منظمة «بادر ماينهوف»، فى ألمانيا الاتحادية سابقًا، وتأسست فى بداية الأمر على أيدى مجموعة من الطلبة الإيطاليين، فى كلية علم الاجتماع الشهيرة فى تورينو عام ١٩٦٩، وكان زعيم هذه المجموعة «ريناتو كورشيو» فى أثناء أحداث الطلبة عام ١٩٦٨، وقتل اثنين من زملائه أثناء المعارك مع الشرطة، حيث قاده ذلك إلى طريق العنف والإرهاب. وسعى هذا التنظيم وتنظيمات أخرى يسارية أبرزها: جماعة «المانيفستو»، السلطة العمالية، النضال المستمر، المقدمة العمالية العالمية الثالثة... هذه التنظيمات سعت إلى تمتين نضالاتها، وتقوية تنظيماتها، وركزت على إدانة الحزب الشيوعى الإيطالى وسياسته فى التساوم مع الديموقراطى المسيحى، متهمة إيّاه بأنه جعل من المسائل المركزية لنشاطه وعمله، تجميد عملية الصراع الطبقى، وإسداء خدمة كبيرة للقوى البرجوازية المسيطرة على تقاليد الحكم.

وتعاظم نشاط الألوية الحمراء بعد سنة ١٩٧٦، ووصل عدد أعضائها إلى أكثر من ١٥٠٠ عضو، يساعدهم أكثر من ٣٠ ألف متطرف، واعتمد تنظيم المواجهة النضالية اليومية للسلطة البرجوازية، معلنًا بأن «بناء التنظيم وتقويته، وصلابة مناضليه لا يتم إلا عبر التمرس فى النضال؛ من خلال التغلب على المصاعب الكبيرة والمشكلات العديدة، التى تعترى طريق النضال الشاق والصعب..». فنفذت الألوية الحمراء عمليات اختطاف واغتيال وعمليات سطو على البنوك؛ مستهدفة حسب ادعاءاتها «محاصرة السلطة»، ولكن هل أرادت الألوية الحمراء حقًّا ولوحدها اغتيال «مفتاح» الحل للأزمة الخانقة، التى كانت تعانى منها البلاد، حين انفتحت آفاق واقعية أفضل للتقدم؟ ومن كان المستفيد الحقيقى من إفشال التحالف مع الشيوعيين؟ ولماذا كان «آلدو مورو» مستهدفًا بالأساس؟ ومن بيده أوامر تحريك الألوية الحمراء؟.

قالت مجلة «نيوزويك» فى عدد ١٩٧٨/٤/٢٤ فى معرض تعليقها على

أهداف العملية، التى قامت بها الألوية الحمراء: «من الواضح جداً أن إضعاف الحزب الشيوعى الإيطالى، سيساعد على قطع مسيرة المجتمع الإيطالى نحو الاستقرار، ويبدو أن هذا هو الهدف الرئيسى للألوية الحمراء، ومن يقف وراءها». إذًا الكل كان يشير إلى «عراب»، يحرك خيوط اللعبة داخل الحدود أو خارجها، وكتب «ماريو كابانا» زعيم حزب الديموقراطية البروليتارية، الذى حل صفوفه، وانضم إلى حزب إعادة التأسيس الشيوعى، كتب عشرات المقالات فى صحيفة الحزب فى بداية الثمانينيات بأن «العراب» هو جوليو أندريوتى، الذى نسج الخيوط وحاك الألاعيب، وأصبح بمثابة الوعاء المطاط، الذى يتسع للتيارات والرجالات والنزوات. هذا الرجل الذى يحاكم حاليًا بعشرات التهم: بتعامله مع عصابات الإجرام المنظم، وتصفية عديد من الشخصيات السياسية والصحافية والقضائية، فى «باليرمو» و«بيروجا» و«روما»، لقد كان بحق رجل كل الفصول، فالحكومات تذهب والسياسات تتغير، وكان وحده العائم على السطح، يواجه طابوراً كبيراً من «التائبين» للشهادة ضده، وها هى قضية قديمة سعى بكل ما فى وسعه لدثرها، تفتح ملفاتها من جديد، وهو يقول ببرودة أعصابه المعهودة: إنه فعل كل شىء من أجل إيطاليا، وكل هذه القضايا المثارة ما هى إلا مؤامرات حقد.. يحيكها ضده الأعداء!!

* * *